نحن الأدباء ...

بقلم وديع فلسطين

ليس هذا « مانيفستو » كما قد يتوهم القارىء من العنوان ، ولكنه حديث مستطرد عن شقوة الاديب ، ولكأنه « كائن » غريب في مجتمعه ناشز بين الناس ، لا ألقوم يفهمونه ولا هو بقادر على ان يكون واحدا من سوادهم . وهو مطارد من الفقر دائما ، يفزعه كابوسه ليلا ، ويرهبه في وضح النهار بظله الكالح ، ولا يدعه حتى وهو خامد الانفاس .

فحافظ ابراهيم ، شاعر النيل الذي كان واحدا من ثلاثة عظام دفعوا الحياة الشعرية دفعة كبيرة في مطالع هذا القرن ، عاش في بأساء برغم الوظيفة حتى قال في بعض شعره المحفوظ :

حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي .. الخ ....

وخليل مطران ، كان لديه مال فانفقه على من كانوا يتكأكأون حوله من ادباء ومتأدبين ومشرّدي الحياةالادبية، فلما حضرته الوفاة لم يجد ذووه قبرا يؤويه ، فدفنوهفي مدافن الصدقة « مؤقتا » . وما زال بعد نحو ثلاثين سنة راقدا « مؤقتا » في تلك المقابر المجهولة بين عظام قوم مجهولين ، ينتظر أن تعجل لجنة نقل رفاته باجراءاتها قبل ان يلحق سائر اعضائها بعضوها الاصيل حبيب جاماتي الذي سبقهم الى سكنى القبور .

وعباس محمود العقاد العظيم ، اراد ذووه ان يدفنوه بجوار امه التي كان يحبها حبا جما وكان يقضي اشهر الشتاء بجوارها في اسوان متخففا من عبء العمل مستمدا منها دفق حياة جديدا . وأراد سواهم ان يدفن في ضريح « يناطح » ضريح اغا خان ! وبين الشدّ والجذب ، دفن العقاد في ارض خراب ! ثم تبارى فلاسفة البيروقراط وأباطرة الروتين في جدل طويل : واحد يقسم بكل أيمان مغلظة بأنه لن يبعثر المال العام على القبور والاجداث ! واخر يقول :لن نقيم للعقاد ضريحا حتى يتبرع لنا آله بمكتبته الخاصة ويتنازلوا عن متعلقاته . وثالث يقول : لقد كان العقاد رجعيا زنيما فلا يستحق ادنى تكريم . وبينما هذه الملاحاة البيزنطية تدور ، ظل العقاد راقدا في ارض خلاء لا تؤنسه فيها الا اصداء عواء الذئاب والكلاب ، ونفايات القوم ! ولم يتحقق للعقاد ما تمناه في بعض شعره من أن تتردد حول جثمانه الاناشيد وترافقه اعذب التلاحين ، ولا تحققت له وصيته بأن يدفن بالقرب من امه الحنون .

ومصطفى صادق الرافعي ، الذي يذكر اسمه فتذكر البلاغة والنفحة الربانية والشاعرية الماجدة ، عاش كل عمره بين اوراق المحاكم كاتبا من كتبة « الدوبيا » ،تتوق نفسه الى علاوة في الراتب تعد بالقروش تأتيه كل عقد من الزمان ، وتشتاق نفسه الى علاج من صمم اذنيه فيطلبه عند الدجالين والمشعوذين حين يعجز الطب عن موافاته بناجع العلاج . وقد مات الرافعي ودفن في اغوار الريف . اما كتبه فيصححها صبيان المطابع وتمتلىء بالاغاليط الفواجع . وكم شد تلميذه وصديقه الشيخ محمود ابوريه شعر رأسه وهو يحاول ان يستثير غيرة القوم على كتب الرافعي التي تبتذلها الاغاليط والتصحيفات فتصامم الناس عنه ، حتى مات بدوره ودفن في اغوار الريف السحيق غير بعيد عن صديقه واستاذه الرافعي .

والعلامة الفيلسوف الدكتور احمد فؤاد الاهواني ، رقد جثمانه عشرة ايام في ثلاجة ، يبحث عنه اهله ويستصرخون ، فلا يوافيهم جثمانه لان الدنيا مشغولة عنهم بجلائل الامور وعظام الشؤون ، ولا ضير من « تابوت الثلج » يرقد فيه امير الاخلاق دون ان يشكو ظلامته ، مفلسفا الموت كما فلسف الحياة !

والعلامة العظيم الدكتور محمد مظهر سعيد مربي الاجيال ومخرج الاساتذة والقادة ، يعثر عليه في الصباح جثة هامدة لصيقة بأرض الشارع . فقد كان عائدا في الليلة الفارطة من ندوة علمية ، وكان يعبر الطريقالى داره والبصر كليل والساقان على هزال ، فصدمتهسيارة مقبلة ، وما لبثت ان اسلمته الى سيارة اخرى مدبرة، ثم اصبح فريسة للسيارات الى مطلع النهار ! ولولا بطاقة في جيب سترته ، لما عرف احد من يكون هذا الطريح الفارق في دمه .

والقاص محمد عبدالحليم عبدالله قتلته « اسنان المشط » . فقد كان مسافرا الى قريته في سيارة كراء انحشر فيها خلق كثير جاوز المقرر بحكم القانون . فلما ضاق صدره بزحامها ، فضفض عما في نفسه ، فنهره السائق بكلام جارح قائلا له بجمع قواه : أن لم يعجبك الحال ، فاشتر لنفسك سيارة كاديلاك . فالناس « يا افندي » اصبحت اليوم كأسنان المشط ، ومن انت حتى تتميز عن سائر الخلق ؟ فانفجر شريان في دماغ عبدالحليم وهو يكظم مشاعره اودى بحياته .

وصالح شرنوبي الشاعر الشاب المرجوّ الغد ، الذي كنت اراه لولبا بين جمعيات الادب ومنتدياته ، يغشاها كأنها الواحة الظليلة التي لا يرتاح الا فيها . فان غادر مجلس الادباء ، فالى حياة التشرد والتسكع ، كان موعده مع الموت تحت عجلات قطار ، اذ كان مسافرا الى قريته بقطار الدلتا المتهالك ، ولم يكن يملك ثمن بطاقة السفر، فحاول الافلات من التذكريّ بالانتقال من مركبة الىاخرى،

فهوى بين المركبتين ، وأجهزت عليه عجلات القطار .

والدكتور زكي مبارك كان يرى نفسه « فوق محل الشمس » — كما قال المتنبي — بألقابه العلمية الكثيرة ، وثقافته المنوعة ، وكتبه الضخام ، وشعره الوفير ، وفصوله التي تملأ الصحف وافرنسيته التي لا تجاريها — في عرفه — افرنسية طه حسين ، وقدرته الفذة على « اتهام » كبار الادباء بانهم ارتكبوا « جنايات » في حق الادب . فبعد « جناية » احمد امين على الادب ، كتب زكي مبارك عن « جناية » السباعي بيومي على الادب و « جناية » الشيخ الفمراوي ... الى آخره .

ولكن زكي مبارك بقي في الوظائف الصغرى ، لاترحب امامه كبار المناصب كما رحبت امام غيره ، فا ستبد به سخط جعله يفرق عمره في كأس ، ويثرثر بكلام يستغرب صدوره منه . وكنت اراه في الصباح المبكر جالسا في المشارب العامة لا يبرح مكانه منها . وجاءت منيته في ليلة عز عليه فيها ان يحفظ توازنه امام قطار المترو ، فمات مصدوما بمركبة من مركباته .

والشاعر عبدالباسط الصوفي بعد ان تشرد في دياره ذهب الى قلب القارة السوداء ليلتمس لنفسه مكانا تحت شمسها ، فصرعته بضرباتها واجهز هو على انفاسه الباقية منتحرا ..

والشاعر بدر شاكر السياب لم تلن له الحياة ، بل ازدادت وطأتها عليه مرضا وحاجة ، فسار مع كل تيار ، وناقض نفسه ، وخالف ضميره ، وكان نزيلا دائما للمستشفيات والمصحات ، ومات وهو في غربة اليمة .

والشاعر عبدالحميد الديب عاش ومات مشردا ، وكان يصف نفسه بأنه « حي ولكن لا يرزق » . فلما ترفق به من عينه في وظيفة حكومية ، ضاق به زملاؤه في المكتب ، فعاد الى تشرده قائلا :

بالامس كنت مشردا اهليا واليوم صرت مشردا رسميا!

ومات بدوره كارعا حنظلة الفقر والبؤس في غرفة « فوق السطح » هو فيها كل الاثاث » ، على حد تعبيره .

والشاعر عبدالقادر رشيد الناصري ، عاش مشردا ومات مشردا ، وقيل انه بقي في « المشرحة » اياما لا يهتدي الى هويته احد ، ولا يميز سحنته صديق ، فقد تبدلت سيماؤه بفعل عقاقير اتلفت صحته واردته الى حضيض هاويتها .

والاديب انور المعداوي — سامحه الله على تعرضه لي مع ما كان بيننا من ود — مات كظبما لانه تلطم بين صفار الوظائف ، وكان يرى نفسه اهلا لكبارها ، فانقبضت نفسه ، وانطوى على ذاته ، وهاجت عليه كبرياؤه بكل شراستها ، فمات رافضا الحياة بعدما رفضته هي بادئة .

والاديب الشاعر عبدالرحمن شكري تكالبت عليه الامراض في آخر عمره بعد عزلة صارمة فرضها على نفسه ، فلما استيقظ الاريحيون ، ثم اوفدوا اليه طبيبا لمداواته كان المريض قد ودع الدنيا من ساعات ، وان كان ودع حياة الادب والفكر والثقافة قبل ذلك بعمر مديد .

والراوية المحدث الفكه محمد مصطفى حمام طوحته الدنيا صاعدة هابطة ، فهو موهوب نثرا وشعرا ولا بأس عليه اذا تكسب من هذه الموهبة ، يبيع خطبة منبرية لسري من سراة القوم بأبخس الاثمان ، وينظم قصيدة يقرضها نسيئة لمتشاعر متفاخرة مع « المهاودة » في السعر لان للشعر تسعيرة تتناسب مع مقام طالبيه ، يسري عليها ما يسري على تسعيرة عروض التجارة من نواميس العرض والطلب !

وظل حمام بلسانه الطويل وبوهيميته الفريدة هدفا للطمات الحياة حتى زاد الكيل . فركب مراكب الاغتراب ، متنقلا من قطر الى قطر حتى مات بعيدا عن الآل والاصحاب . ولم ينشر له في حياته ديوان او كتاب ، مع انه كان يحفظ شعرا تنوء به الحافظة اليقظة ، وكان فضلا عن هذا يزيف الشعر تزييفا متقنا وينسبه الى اصحابه حتى وهم احياء فيتوهمون انه من نظمهم المنسي ! وله في تزييف شعر شوقي والجارم وسواهما تاريخ حافل !

* * *

هذه نماذج ، مجرد نماذج ، من الخواتيم التي تنتظرنا نحن الادباء ما دمنا بين شد الحياة وجذبها لا نستقر على مقام في الجماعة ، وما دامت منزلتنا خاضعة لاعتبارات مبثوثة الصلة بالادب . اما ما نتعرض له نحن معاشر الادباء من تجن وتحامل وجمود وكنود ، فامر يطول فيه البحث ، وتكثر فيه النماذج الصوارخ ، وهو ما قال فيه الشاعر القروي رشيد سليم الخوري من ربع قرن

اليس عظيما انني بعد شيبتي
اعاني من الاصحاب نكرا مشيبا
واني في الستين ما زلت مكرها
لاجل كفافي ان اكد واتعبا

وهناك كذلك « حواة الكلام » الذين يتلذذون باخضاع الكلام لاساليب الحواة وشطارات « البهلوانات » وقد احسن وصفهم الشاعر جورج صيدح وهو يترحم على عهد امير البيان شكيب ارسلان ، فقال :

رحم الله عهده كان فيه
قولة الحق لا تشكل تهمة
اصبح اليوم اصدق الشعر يخشى
من حواة الكلام نقدا ونقمة

وهناك « البروقسيرات » البارعون ، الذين يصطنعون « مساطر » من خارج الادب يقيسون بها كل عمل ادبي ، ثم يحكمون على الادباء احكاما تتناول ذممهم وعقيدتهم واعراضهم وضمائرهم وشرفهم ، ولهم في الترويع اساليب يبرأ منها تاريخ الادب منذ فجر الحياة والى منتهاها .

ومع ذلك ، فلا بديل لنا نحن معاشر الادباء الا ان نرتضي هذا القدر المرسوم والمصير المحتوم ، فالحرفة قد ادركتنا وليس منها فكاك او فرار .

القاهرة وديع فلسطين